البِنى الاستعماريّة وانهيار الأخلاق في الفضاء العلاجيّ: قراءة في تجربة ذاتيّة من منظورٍ تحرُّريّ

نجلاء عثامنة

تشرين الثاني 2025

مدى الكرمل
علم النفس التحرّري
Liberation Psychology

برنامج علم النفس التحرّري

البِنى الاستعماريّة وانهيار الأخلاق في الفضاء العلاجيّ: قراءة في تجربة ذاتيّة من منظورٍ تحرُّريّ

نجلاء عثامنة

معالجة نفسية ومشرفة تعمل في عيادتها الخاصة في حيفا، ومحاضِرة في جامعة بيرزيت

تحرير: إيناس عودة- حاج؛ د. سما دواني

تشرين الثاني 2025

حقوق النشر محفوظة 2025
مدى الكرمل- المركز العربيّ للدراسات الاجتماعيّة التطبيقيّة
العنوان: شارع هميچنيم 90، حيفا
البريد الإلكترونيّ: mada@mada-research.org
رقم الهاتف: 04-8552035

توطئة

"من يكتبْ حكايتَهُ يَرِثْ أرضَ الكلامِ، ويَمْلكِ المعنى تمامًا!".[1]

تتناول هذه المقالة العلاقة العلاجيّة النفسيّة من منظور متعالِجة تعمل، في الوقت ذاته، معالِجة نفسيّة، بوصفها علاقة يشتبك فيها الشخصيّ بالجمعيّ والداخليّ بالخارجيّ، ولا سيّما في سياقات مشحونة سياسيًّا وأخلاقيًّا؛ وذلك من خلال استعراض تجربة تحليل نفسيّ وقراءة نقديّة لها. تنطلق المقالة من منظور يرى أنّ الفضاء العلاجيّ ليس فضاء معزولًا، بل يتأثّر ببنى علاقات القوى. وتقترح مقارَبة تحليليّة تستند إلى تقاطعات بين نظريّات علم النفس الكلاسيكيّ وعلم النفس التحرُّريّ وتوجُّهات نقديّة نسويّة وما بعد استعماريّة، للكشف عن لحظات انهيار أصابت الفضاء العلاجيّ. وتُبيِّن أنّها لحظات تعبّر عن انعكاس لبِنًى مهنيّة وأخلاقيّة وسياسيّة واجتماعيّة لم يجرِ التطرُّق إليها بما يكفي داخل حقل العلاج النفسيّ. لا تكتفي المقالة بتوصيف الفشل، بل تحاول مساءلة بعض الأُسس والمفاهيم في الممارسة العلاجيّة، نحو: الحياد؛ الإصغاء؛ الاحتواء؛ المكان الآمن... هذه المفاهيم، غالبًا ما تُقدَّم في علم النفس الكلاسيكيّ كأدوات علاجيّة خالصة، في حين تدّعي هذه المقالة، أنّ هذه الأدوات قد تتحوّل دون وعي إلى أدوات تعيد إنتاج العنف البنيويّ داخل غرفة يُفترض أنّها آمنة. من هنا تأتي مساءلة الأسُس والمفاهيم والممارسات المهنيّة، لا من خلال مضمونها التقنيّ أو نواياها الفرديّة فحسب، بل كذلك من موقعها داخل البنى الاجتماعيّة والسياسيّة التي تنتجها وتعيد إنتاجها. وهذا ليس بهدف تقويضها أو نفي قيمتها، بل من أجل إعادة تأصيلها ضمن سياقاتها الاجتماعيّة والسياسيّة والإنسانيّة، بحيث تُستعاد بوصفها أدوات تحرُّر لا أدوات ضبط. هذا التوجُّه النقديّ يجد ترجمته المنهجيّة في تبنّي الإثنوغرافيا الذاتيّة بوصفها إطارًا يتيح مساءلة الممارسات والمفاهيم العلاجيّة من الداخل، وتحويل التجربة الشخصيّة إلى أداة تحليل نقديّ للحقل المهنيّ والمعرفيّ للعلاج النفسيّ. علاوة على هذا، يرمي المقال إلى توسيع فضاء النقاش داخل حقل العلاج النفسيّ، وإثرائِهِ بأدوات تحليليّة نقديّة، تمهيدًا لمشروع بحثيّ أوسع.

الموقعيّة[2] Positionality

أنا امرأة فلسطينيّة أعيش داخل إسرائيل، من جيل النكبة الثاني. أنتمي إلى شعب يتوزّع داخل الخطّ الأخضر، والضفّة الغربيّة، والقدس، وقِطاع غزّة، ودول اللجوء. للإشارة إلى الفلسطينيّين، الذين يعيشون داخل إسرائيل، تُستخدم تسميات عدّة، من بينها: "عرب الـ48"؛ "الفلسطينيّون في المناطق التي احتُلّت عام 1948" (للتركيز على الحدث المفصليّ الذي أسهَمَ في صياغة الوعي والهُويّة)؛

* تُقدّم هذه المقالة تأمُّلًا إثنوغرافيًّا ذاتيًّا ينطلق من تجربة علاج نفسيّ عاشتها الباحثة شخصيًّا. أُعِدّ النصّ مع الالتزام التامّ بمبدأ السرّيّة المهنيّة، ودون الكشف عن أيّ تفاصيل قد تُعرِّف أشخاصًا أو مؤسّسات. ترمي المقالة إلى مساءلة البِنى الأخلاقيّة والسياسيّة التي تُشكِّل الفضاء العلاجيّ، لا إلى تناول الأشخاص المعنيّين بذواتهم.

1. درويش، محمود. [د. ت]. قال المسافر للمسافر. الديوان.

2. يشير مفهوم الموقعيّة، أو الموضعيّة، أو التموْضُعيّة، إلى وعي بالسياق الذي يجري فيه البحث وبموقع أو تموْقُع الباحث/ة داخله، ويوضّح الشروط والحدود التي تشكّل عمليّة إنتاج المعرفة. للمزيد: هيسي، شارلين ناجي؛ وليڤي، بايبر؛ وباتريشيا، لينا. (2015). **مدخل إلى البحث النسويّ: ممارسةً وتطبيقًا**. (الطبعة الأولى، ترجمة كمال، هالة). القاهرة: المركز القوميّ للترجمة. ص.ص. 97– 136.

"الفلسطينيّون داخل إسرائيل" أو "الفلسطينيّون داخل الخطّ الأخضر" (لتحديد السياق القانونيّ-السياسيّ الذي يعيشون في ظلّه)؛ وأحيانًا "عرب إسرائيل" كصيغة سياسيّة خلقتها إسرائيل في محاولة لنزعهم عن هُويّتهم الفلسطينيّة.

أنا معالِجة نفسيّة أيضًا. أبناء جيلي من المعالِجين والمعالِجات الفلسطينيّين ليسوا كثيرين من حيث العدد، وفي الغالب تجمعنا دوائر مهنيّة، وأحيانًا شخصيّة متداخلة. إنّ تلقّي العلاج النفسيّ ضروريّ وحيويّ للحفاظ على التوازن الشخصيّ والمهنيّ. فالمعالِج/ة الذي يحرم نفسه من العلاج يحرم مهنته من الصقل والاستمراريّة والنضج. لذا، نتوجّه أحيانًا إلى معالِجين/ات إسرائيليّين/ات، باعتبارهم خارج الدوائر القريبة. مؤخَّرًا، اخترت العمل مع محلِّلة نفسيّة إسرائيليّة لهذا السبب تحديدًا. وقد حمل هذا القرار تعقيدات عديدة: بدءًا من استخدام اللغة العبريّة في فضاءات تُهمَّش فيه لغتي الأمّ، العربيّة؛ ومرورًا بتفاوت القوى البنيويّ في السياق الإسرائيليّ-الفلسطينيّ؛ ووصولًا إلى التوتُّر الكامن في علاقة المعالِجة-المتعالجة، تلك العلاقة التي تتأثر، بالضرورة، بتاريخ استعماريّ لم ينتهِ بعد، إلى جانب تحوُّلات سياسيّة، في العَقد الأخير، أدّت الى تصاعد السياسات العنصريّة والفاشيّة، في مسار يَبلغ ذروته منذ السابع من أكتوبر 2023.

مدخل

استغرقت كتابة هذه المقالة وقتًا طويلًا، ورافقها تردُّد متكرّر بشأن نشرها، نظرًا لتناولها تجربة شخصيّة تنطوي على قَدْر من الإفصاح والكشف الذاتيّ، ونظرًا للّحظة التاريخيّة المفصليّة التي نعيشها كشعب يواجه في غزّة حرب إبادة، وفي الضفّة عمليّات قتل واعتقالات وتدمير ممنهَج، بينما يعيش الفلسطينيّون في دول اللجوء تجربة المنفى وعدم الاعتراف بحقّ العودة والحرمان من الحقوق الأساسيّة، وأمّا الفلسطينيّون في الداخل فيواجهون اضطهادًا وحملات اعتقالات وعمليّة ترهيب وإسكات، تتصاعد حدّتها منذ تشرين الأوّل 2023، نظرًا لكلّ هذا، قد تبدو التجارب الفرديّة ثانويّة للوهلة الأولى. ويكشف هذا التردُّد عن التناقضات والصراعات الداخليّة والمأزق الوجوديّ للفلسطينيّ/ة في الداخل، حيث يُضطرّ (الفلسطينيّ/ة) بحكم التّماس المباشر مع الإسرائيليّين داخل بنْية استعماريّة مفروضة إلى بناء علاقات مهنيّة أو حياتيّة مثقلة بالرموز والشعور بالذنب والإدانة والجرح الجمعيّ. مع ذلك، بدا واضحًا، مع مرور الوقت، أنّ التجربة التي خضتها داخل العلاج لم تكن واقعة فرديّة معزولة، بل كانت انعكاسًا لظاهرة أوسع تتكرّر في سياقات علاجيّة مشابهة، وتُبيِّن كيف تتسرّب البِنى الاستعماريّة إلى الغرف العلاجيّة نفسها.

إنّ الكتابة عن التجربة تطمح إلى الإسهام في نقد الظاهرة وفَهْمها، بما يتيح التعلُّم منها وتطوير الممارسة العلاجيّة، خاصّة في ظلّ ندرة الأصوات التي تَكتب من موقع المتعالج/ة، رغم أهمّيّتها في إثراء النقاش المهنيّ والمعرفيّ. وهي كذلك محاولة للتفكُّر الذاتيّ ومقاومة الأثر النفسيّ للتجربة، وربّما تكون حافزًا لمن مرّوا بتجارب مشابهة لكسر الصمت.

فضلًا عن ذلك، تكشف هذه التجربة عن أنماط متكرّرة من الإنكار والانشطار (Splitting) لدى معالِجين/ات نفسيّين إسرائيليّين في تعاملهم مع الرواية الفلسطينيّة والبنى الاستعماريّة، وبخاصّة في الفترة الأخيرة، تجاه ما يجري في غزّة. ويوازي ذلك استمرار بعض المعالِجين/ات الغربيّين/ات

في التعاون مع مؤسَّسات علاجيّة إسرائيليّة تمتنع عن اتّخاذ موقف أخلاقيّ واضح من الإبادة، ممّا يسهم في تطبيع هذه الظاهرة وخلق أزمة عميقة لحقل علم النفس حيث يجري تفريغ الممارسة من بُعدها الأخلاقيّ. من هنا، فإنّ الكتابة تهدف أيضًا إلى إضاءة حدود الممارَسة العلاجيّة في سياقات استعماريّة، وإلى مَوْضَعة سؤال الأخلاق داخل النقاش في حقل علم النفس بوصفه محورًا مركزيًّا لفَهْم الإنسان والمهنة معًا.

المنهج

لقد قادني التردُّد، وما رافقه من وعي بالتقاطعات بين الذاتيّ والجمعيّ، إلى اختيار الإثنوغرافيا الذاتيّة إطارًا للكتابة؛ إذ يتيح هذا المنهج تحويل التجربة الفرديّة إلى نافذة لفحص البِنى المهنيّة والاجتماعيّة والسياسيّة التي تنتجها، بما يمكّن من مساءلتها نقديًّا من الداخل.

تُعرَّف الإثنوغرافيا الذاتيّة (Autoethnography) كمقارَبة بحثيّة سرديّة تمزج بين التجربة الشخصيّة والتحليل النقديّ المتعدّد العدسات النظريّة. يشير پولوس إلى أنّ الإثنوغرافيا الذاتيّة هي "نوع من الكتابة الأكاديميّة السرديّة ذات الطابع الذاتيّ، تقوم على تجربة الكاتب/ة الحياتيّة وتحلّلها أو تفسّرها، وتربط بين رؤى الباحث/ة والهُويّة الذاتيّة، والقواعد والموارد الثقافيّة، وممارسات التواصل، والتقاليد، والمبادئ، والرموز، والمعاني المشتركة، والمشاعر، والقِيَم، والقضايا الاجتماعيّة، والثقافيّة، والسياسيّة الأوسع نطاقًا".[3] وتُدْرَج المشاعر في هذا المنهج بوصفها مَصْدرًا للمعرفة، ممّا ينسجم مع تنظير بيون حول عمليّة التفكير وإنتاج الأفكار وارتباطهما الوثيق بالمكوِّنات، والمضامين، الشعوريّة والعاطفيّة.[4] كذلك تهدف الإثنوغرافيا الذاتيّة إلى خلق وعي نقديّ، وإثارة المعنى العاطفيّ والثقافيّ للتجربة، وتحقيق العدالة الاجتماعيّة. وبهذا، تتحدّى الإثنوغرافيا الذاتيّة أُسُس الإپستمولوجيا الكلاسيكيّة التي تفصل بين الباحث وموضوع البحث، وبين المعرفة الذاتيّة وما يُعَدّ معرفة علميّة، لتُعيد تعريف البحث بوصفه ممارسة علائقيّة ومعرفيّة وأخلاقيّة. كذلك ينسجم هذا المنهج مع النهج النسويّ والتحرُّريّ الذي يعترف بتعدُّد طرائق إنتاج المعرفة، ويُوسّع مفهومها ليشمل التجربة الذاتيّة.

يشير آدامز وبويلورن وتيلمان إلى أنّ "السرديّات الشخصيّة التي تعجز عن تجاوز الحياة الداخليّة، والتحليلات الثقافيّة المنفصلة عن التجارب المعاشة، ليست إثنوغرافيّات ذاتيّة".[5] ويرفضون النزعة النيولبراليّة التي تسعى إلى فَرْدَنَة المشاكل والصعوبات الاجتماعيّة وخصخصتها، مؤكّدين أنّها تمسّ الأجساد والكينونة الفرديّة والجمعيّة. وبذلك، تتيح الإثنوغرافيا الذاتيّة قراءة وتحليل الممارسات في سياقاتها الاجتماعيّة والسياسيّة، وتوظيف التجربة الفرديّة من أجل تحليل الظواهر البنيويّة ومساءلة البنى التي تنتجها.

تعتمد هذه المقالة على تجربة شخصيّة، لا باعتبارها إفصاحًا ذاتيًّا أو توثيقًا فرديًّا، بل كمدخل نقديّ تحليليّ يرمي إلى مساءلة الممارسة العلاجيّة من داخلها، وفَهْمها في سياقات مهنيّة وأخلاقيّة

3. Poulos, N. Christopher. (2021). **Essentials of Autoethnography**. Washington, DC: American Psychological Association. P. 4.

4. Bion, Wilfred R. (1962). **Learning from Experience**. London: Heinemann.

5. Adam, E. Tony; Boylorn, M. Robin; & Tillmann, M. Lisa (Eds.). (2021). **Advances in Autoethnography and Narrative Inquiry: Reflections on the Legacy of Carolyn Ellis and Arthur Bochner**. New York: Routledge. P. 3

واجتماعيّة وسياسيّة مأزومة. ويُوظَّف المنهج هنا كوسيط نقديّ يمكّن من التنقُّل بين موقع الذات المعاشة والذات المحلَّلة، مع الاعتراف بتَذاوُت[6] العلاقة بينهما، وينطوي على تَبَنٍّ واعٍ للانحياز لمن هم وهنّ في موقع الهشاشة أو التهميش، أي الانحياز إلى العدالة والتحرُّر. فضلًا عن هذا، يتّخذ النصّ بنْية مزدوجة: يقدّم سرد التجربة بصيغة المتكلّم داخل الجلسات العلاجيّة، ثمّ يعيد قراءتها من مسافة تأمُّليّة تحليليّة، مستفيدًا من خصائص الإثنوغرافيا الذاتيّة في الجمع بين الصرامة الأكاديميّة والحسّ الإبداعيّ والانخراط الوجدانيّ.

على عتبة التحليل النفسيّ

في كانون الثاني 2022، بدأتُ أتلقّى علاجًا نفسيًّا لدى "ش"، وهي محلِّلة نفسيّة إسرائيليّة. بدأ ذلك بجلسة واحدة أسبوعيًّا، وبعد بضعة أشهر تبدّل الأمر ليصبح تحليلًا نفسيًّا مكثَّفًا أتلقّاه ثلاث مرّات أسبوعيًّا. استمرّ هذا الإطار حتّى تشرين الثاني 2023.

اخترت العمل مع "ش" لكونها محلِّلة نفسيّة مؤهَّلة. في تلك الفترة، كنت أفكّر في الالتحاق ببرنامج تدريب في التحليل النفسيّ يتطلّب عامَيْن على الأقلّ من التحليل الشخصيّ. قبلها، مررت بتجارب علاج نفسيّ مع معالِجات مختلفات، لكن لم تكن بينهنّ محلّلة نفسيّة. وقد وجّهتني إلى "ش" معالِجتي السابقةُ، وهي مختصّة نفسيّة مؤهَّلة على قَدْر عالٍ من المهنيّة أثق بها وأكِنّ لها التقدير.

مع بداية مسار التحليل النفسيّ، عرضتْ عليَّ "ش" أن أختار بين الجلوس على الكرسيّ أو الاستلقاء على الأريكة، فاخترت الكرسيّ دون تردُّد؛ إذ لم يكن الاتّكاء على الآخرين بالأمر المعتاد بالنسبة لي، ولم أكن قد بنيت شعورًا بالثقة تجاه المعالِجة. لكن بعد فترة، انتقلت إلى الأريكة. كان ذلك علامة على تطوُّر ثقتي بِـ "ش"، مع الإدراك أنّ الاستقلاليّة لا تتناقض بالضرورة مع القدرة على الاتّكاء على الآخَر حين يكون جديرًا بالثقة. هذا التحوُّل البسيط في الظاهر أثّر فيّ بعمق، وذلك على المستويَيْن الشخصيّ والمهنيّ.

بمرور الوقت، لم تعد الجلسات العلاجيّة مجرّد ضرورة تهيّئني للتقدُّم لبرنامج التدريب، بل صارت حاجة شخصيّة. وساعدني العمل مع "ش" على التعمُّق في عالمي الداخليّ، وعلى تحسين حضوري كمعالِجة خلال عملي في عيادتي.

لكن مع اندلاع حرب الإبادة في تشرين الأوّل 2023، عدتُ تلقائيًّا إلى الكرسيّ. لم أَعُدْ قادرة على الاستلقاء. جسدي اتّخذ القرار قبل ذهني. أدركتُ أنّني لا أثق تمامًا بقدرتها على احتواء مشاعري وأفكاري. فعلى مدار الشهور السابقة، كنت قد تعلّمت الكثير عنها: من الكلمات التي تختارها، ومن تأويلاتها، ومن نبرة صوتها، وتعابير وجهها، ومن حضورها الجسديّ. أدركتُ أنّ قدرتي على منحها الثقة كانت محدودة، إذ لم تكن تمتدّ إلى اللحظات التي يتقاطع فيها الشخصيّ مع السياسيّ، أو حين تتلاقى تجربتي الذاتيّة مع الذاكرة والتجارب الجمعيّة لشعبي.

---

6. "مفهوم التذاوُت يعني تفاعل الذات الباحثة مع موضوع بحثها"... في هذا يُنظَر:
المخلوفي، محمّد. (2024). البحث السرديّ في العلوم الاجتماعيّة: نظريّات وتطبيقات. (مراجعة كتاب مؤلّفه احجيج، حسن). عمران للعلوم الاجتماعيّة، 48 (12). ص. 246.

زِدْ على ذلك أنّها، في بعض الأحيان، كانت تنظر إليّ من زاوية اهتماماتها الشخصيّة، كما حدث حين عبّرتْ عن استغرابها لعدم تطرُّقي في حديثي إلى المظاهرات الإسرائيليّة ضدّ الحكومة الإسرائيليّة خلال فترة الانقلاب القضائيّ، التي بدأت قبل تشرين الأوّل 2023. جاء تعليقها في جلسة تأخّرتُ عنها بضع دقائق بسبب مظاهرة أعاقت حركة السير، وحين أشرت إلى ذلك علّقَت بأنّها تستهجن عدم تناولي لهذا الموضوع سابقًا. أثار هذا الاستهجان لديّ تساؤلات، وخاصّة أنّها تُبدي في المعتاد اهتمامًا بالعالم الداخليّ لا الخارجيّ، فلماذا إذًا ظهر هذا الاستثناء؟!

لاحقًا في تلك الجلسة، قالت إنّها تشارك في تلك المظاهرات، وهو ما أضفى على تعليقها بُعدًا شخصيًّا. صحيح أنّ التساؤل بشأن هذا الاستثناء الآن قد بقي حاضرًا في ذهني، إلّا أنّني أُعجبت بمشاركتها في فعل سياسيّ، وبكونها إنسانة ومعالِجة تستطيع قول "لا" في وجه سلطة. وراودني أمل في أنّ هذا قد يفتح مِساحة أوسع واحتواء أعمق لأجزائي المختلفة. لذا، في نهاية تلك الجلسة، قلت لها ممازِحة إنّني يمكن أن أوصلها إلى المظاهرة في طريقي، كإشارة إلى إمكانيّة الربط بين الشخصيّ والسياسيّ، وكذلك إلى لحظة تَقاطُع نادرة شعرت فيها بشيء من الإعجاب والتقرّب والاحتمال.

ولكن على وجه العموم، كلّما شاركتُ مواضيع سياسيّة داخل جلساتنا، شعرتُ بأنّها تستمع إليّ من خلال موقعيّتها وتوقُّعاتها هي، لا من خلال تجربتي الخاصّة.

لحظات الانهيار: تشقُّقات في الفضاء العلاجيّ

عايشتُ خلال هذه التجربة لحظات متعدّدة أدّت إلى تشقُّقات في الفضاء العلاجيّ، وشكّلت نقاطَ تحوُّل في العلاقة العلاجيّة. في ما يلي، أسعى إلى تسليط الضوء على بعض هذه اللحظات التي وقعت مباشرة بعد السابع من أكتوبر 2023. إنّ اختيار هذه اللحظات ليس حياديًّا أو شاملًا، بل هو انتقائيّ بالضرورة، نظرًا لعدم اتّساع المقالة لتفاصيل كثيرة من المسار العلاجيّ، ولاختيار اللحظات التي تنطوي على إمكانيّة للتفكُّر والتأمُّل، لِما تحمله من كثافة نفسيّة ومهنيّة تُسهم في تطوير الفَهْم والتحليل، وتعزيز الحسّ العلاجيّ من منظور مهنيّ وأخلاقيّ. إنّها ليست لحظات عرَضيّة، بل لحظات شكّلتْ شروخًا وتشقُّقات داخل الفضاء العلاجيّ، وتُبيِّن ما قد يَحْدث حين تتقاطع التجربة العلاجيّة مع صدمةٍ جمعيّةٍ وسياق اجتماعيّ وسياسيّ وأخلاقيّ مضطرب، في حال تجاهُل بِنى علاقات القوّة.

"الإذن بالرواية"

في الجلسات الأولى التي تلت اندلاع الحرب على غزّة، استمرّت "ش" في فرض وجهة نظرها الخاصّة، بغضّ النظر عمّا كنت أقوله. حتّى حين ذكّرتها بأنّ ما يحدث لم يبدأ في السابع من أكتوبر 2023، وأنّ سكّان غزّة يعيشون تحت الحصار منذ أكثر من سبعة عشر عامًا، وأنّ الإبادة والمحو مستمرّان منذ عقود، واليوم يَحْدثان على نحوٍ مكثَّف، استمرّت في تجاهل موقفي. شعرتُ بأنّها استولت على الفضاء العلاجيّ، الفضاء الذي يُفترض أن يكون آمنًا وحاميًا لي، ويتّسع لعرض روايتي من منظوري. رأيت أنّها تُحوِّل الجلسات إلى منبر يلبّي حاجتها في أن تُسْمَع، وهو ما ولّد لديّ شعورًا بالتوتُّر والغضب، وأثار بي، أحيانًا، شعورًا بالخوف، لا سيّما في ظلّ حملات الاعتقال وسياسات الترهيب والإسكات التي تستهدف الفلسطينيّين/ات في الداخل. ومع ذلك، حاولتُ أن أواجه الخوف من موقع الصدق

مع مشاعري، ومن اقتناعي بأنّ المِساحة العلاجيّة وُجِدت لتتيح لي أن أروي قصّتي وأتعامل مع صعوباتي، لا أن أُستدرج لمعالجة صعوباتها هي.

في هذا الصدد تقول هوكس: "لو كانت المرأة السوداء من الطبقة الوسطى هي البادئة بحركة تشير إلى نفسها بمفهوم "المقهورة" لَما نالت أيّ اهتمام جادّ ممّن حولها. ولو أنّ هؤلاء النساء كنّ قد شكّلن منابر عامّة وألقيْنَ خطبًا حول تعرُّضهنّ للقهر، لَتَعرَّضن للانتقاد والهجوم من كافّة الاتّجاهات". وتضيف: "لا يتمّ الإنصات إلينا إلّا إذا تطابقت آراؤنا مع الخطاب السائد".[7] من حديث هوكس، يمكن الاستنباط أنّ الفشل العلاجيّ قد يتجلّى بتجاهل الألم المرتبط بتقاطع الهُويّات، أو حين يُعاد تأطيره داخل مفاهيم تقنيّة أو مُفْرَغة من محتواها السياسيّ، ممّا يكرّس إسكاتًا إضافيًّا داخل العلاج. ويتقاطع هذا مع ما أشار إليه فانون حين كتب عن التجربة الاستعماريّة باعتبارها نزعًا لصوت الآخَر، وفرضًا للُغةِ ومفاهيمِ "السيّد" على المستعمَر، بحيث يفقد هذا الأخير حقّه في تمثيل ذاته.[8] لقد تحوّل صوتي إلى موضع شُبهة، إلى سرديّة يجب تبريرها والدفاع عنها بدلًا من أن تكون موضع إصغاء وتحليل. هنا تمامًا يتجلّى ما سمّاه سعيد "الإذن بالرواية": كيف يُمنح الصوت فقط حين ينسجم مع رواية الهَيْمَنة، ويُقصى حين يتحدّى سطوة المركز.[9] وهكذا بدت المِساحة العلاجيّة كمسرح يعيد تمثيل علاقات السلطة البنيويّة. ولعلّ المأساة الأكبر تكمن في أنّ ذلك حدث داخل مِساحة كان يُفترض أن تتيح للمعاناة صوتًا لا أن تُلغيه.

"الأخ الأكبر" يُلقي ظلّه داخل الغرفة

في جلسة أخرى، واجهتني "ش" قائلة إنّني لا أتحدّث إلّا عن غزّة، دونما تطرّق إلى ما حدث في السابع من أكتوبر 2023. ذكّرتها بأنّني كنت قد أشرت إلى هذا الحدث خلال جلسة سابقة، فردّت قائلة: "نعم، لكن استغرق الأمر أربعين دقيقة حتّى تَذْكريه". شكّلت تلك اللحظة صدمة أخرى. شعرتُ حينئذ بإرهاق عاطفيّ، وإحباط، وغضب عميق. واستحضرت ذاكرتي أحداثًا مشابهة شاركني إيّاها معارفي، يمكن تلخيصها بِما مُفادُهُ أنّك -أيّها الفلسطينيّ- في مثل هذه الحالات لستَ مُطالَبًا بالاعتراف بالآخر وبحقّه في العيش فقط، بل بالاعتراف "بحقّه" بقتلك وإنكار أنّه قتلك. ثمّ تساءلت في سرّي: لماذا تُحسب علَيَّ الدقائق؟ هل يُنتظر منّي أن أتناول ما يهمّها هي؟ أليس من المفترَض أن تكون الجلسة فضاءً آمِنًا أُحْضِر فيه ما أحتاج إليه؟ في تلك اللحظة، شعرتُ كما لو كنتُ تحت المراقَبة، وكأنّ "الأخ الأكبر" من رواية أورويل "1984" يراقبني من داخل الغرفة.[10] كان هذا الشعور طاغيًا، متراكمًا، إلى أن بلغ حدًّا لم أَعُدْ أحتمله.

إنّ تذكُّر "الأخ الأكبر" من رواية أورويل، خلال هذه التجربة، ليس مجازيًّا فحسب، بل يُعبِّر عن حقيقة انكشاف الذات داخل منظومة مراقبة يُمْلي فيها النظام العلاجيّ ما يُفترض أن يُقال، وفي أيّ لحظة. وبهذا يعاد تمثيل بنْية سلطويّة تُفرِّغ العلاقة من بُعدها العلاجيّ والإنسانيّ.

---

7. هوكس، بيل. (2002). "المرأة السوداء وصياغة النظريّة النسويّة"، لدى الصدّة، هدى (محرّرة). **أصوات بديلة: المرأة والعِرق والوطن في العالم الثالث**. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة. ص. 38.

8. فانون، فرانز. (2004). **بشرة سوداء، أقنعة بيضاء**. (ترجمة خليل، أحمد خليل). بيروت: دار الفارابي.

9. سعيد، إدوارد. إذن بالرواية. (2021). مجلّة الدراسات الفلسطينيّة، 127.

10. أورويل، جورج. (2014). **1984**. (ترجمة النبهان، الحارث). بيروت: منشورات الجمل.

صور ومرايا

في إحدى الجلسات، صرّحت "ش" أنّ الفلسطينيّين في غزّة ينشرون صوَرًا مزيَّفة، مدّعية أنّهم يستخدمون برامج تحرير الصور (الفوتوشوب) لإنتاج صوَر لأشلاء أجساد أطفال، وأضافت: "الجميع يعلم أنّ هذه صوَر مزيَّفة". صدمني كلامُها وكونُها منفصلة عن المعاناة الإنسانيّة التي كنت أحاول أن أُوصلها. لم يكن موقفها مجرّد إنكار، بل كان محوًا للحقيقة والمشاعر والكرامة، ومحوًا لكينونة الإنسان الفلسطينيّ حتّى في موته.

شعرتُ، في تلك اللحظة، بتحطُّم الفضاء المشترَك وسقوط العلاقة إلى مستوى من التشويش العاطفيّ والمساءلة الأخلاقيّة. لم تكن كلماتها صادمة فحسب، بل هدّامة كذلك، لأنّها هدمت الجسر العلاجيّ الذي يُفترَض أن يُبنى بين الحقيقة النفسيّة والواقع السياسيّ. وشعرتُ أنّ كلماتي لم تَعُدْ تُسمع، وأنّ المعاناة غير معترَف بها، وأنّ وجودي نفسه غير معترَف به. فالمعالِجة من موقعها المكرَّس بالامتيازات داخل الحقل العلاجيّ، والتي لا تقتصر على موقعها المهنيّ، بل تتجاوز ذلك إلى تَمَوْضُعها الجندريّ والعِرقيّ كإسرائيليّة مقابل متعالجة فلسطينيّة، استخدمتْ هنا سلطتها لإسكات أو إنكار تجربتي وتجاهل مشاعري.

إضافة إلى هذا، شعرتُ أنّ الصور التي أنكرتْها "ش" لم تكن مجرَّد صوَر لأجساد ممزَّقة، بل هي مرآة تعكس وجهًا آخَر للعنف الذي لا يُراد له أن يُرى. كنت أراها وجوهًا لأشخاص يشبهونني، بينما بدت لها مجرّد "موادّ مزيَّفة". كان إنكارها للصوَر أشبه برفض للنظر في المرآة، خوفًا من أن ترى في انعكاسها ملامح القبح الاستعماريّ، وقد تكشف تلك الصوَر عن العنف الذي يمارَس باسمها.

"تلك قضيّة، وتلك قضيّة"[11]

في إحدى الجلسات، سألتُ المعالِجة "ش" عمّا إذا كانت هناك أصوات داخل المجتمع الإسرائيليّ تعارض الحرب وتطالب بإيقافها. أوضحتُ أنّ انطباعي، من متابعتي المحدودة للإعلام الإسرائيليّ، هو أنّ الجميع يَدْعون إلى استمرار الحرب. أجابت: "هناك أشخاص مختلفون وآراء مختلفة". ثمّ فجأة، ودون سابق إنذار، أضافت: "قصف المستشفيات، حتّى بوجود مرضى، لا يُعَدّ جريمة حرب بحسب القانون الدوليّ".

صُدِمتُ. لم أستوعب كيف أفضى سؤالي بشأن إمكانيّة وقف الحرب إلى هذا النوع من الشَّرْعَنَة للعنف وتبريره. وشعرتُ أنّ العنف لم يَعُدْ محصورًا في الخارج، بل أصبح موجَّهًا نحوي مباشرة، نحو وجودي كإنسانة وكفلسطينيّة. كان وقْع كلماتها أشبه بقصفٍ اخترق الفضاء العلاجيّ وأصاب أكثر المِساحات هشاشةً. ولم يَعُدْ بالإمكان فصلُ العلاقة العلاجيّة عمّا قيل فيها، إذْ تسلَّلَ الشكّ إلى جوهرها، محْدِثًا شرخًا في أساسها الأخلاقيّ. حتّى عند محاولة تأويل عبارة المعالِجة على أنّها زلّةُ لسان

11. العنوان مقتبَس من قصيدة للشاعر المصريّ مصطفى إبراهيم، غنّتها فرقة كايروكي عام 2024. تحمل كلمات القصيدة دلالة نقديّة على ازدواجيّة المعايير الأخلاقيّة التي تُجزّئ البشر إلى من يستحقّون الحياة ومن لا يستحقّونها. ويُستخدم الاقتباس هنا للإشارة إلى رفض هذه الازدواجيّة، وبخاصّة داخل فضاءات علاجيّة تُعْنى بالشفاء؛ وذلك أنّ المستشفيات -شأنها في ذلك كشأن غرفة العلاج النفسيّ- هي مِساحاتٌ للشفاء.

(Parapraxis/ Freudian slips)[12] أو فعلٌ عَرَضيّ[13] (Symptomatic act)، ظلّ أثرها عنيفًا، لا بالبعد الرمزيّ فحسب، بل كذلك بأبعاده المهنيّة والإنسانيّة والأخلاقيّة.

شعرتُ أنّ هناك مَن يتنكّر لإنسانيّتي، وأنّ هنالك ازدواجيّة أخلاقيّة، وخاصّة أنّ المستشفى والغرفة العلاجيّة كليهما مِساحتان للشفاء، وحين يُشَرْعَن قصف الأوّل ماديًّا، يُقصف الثاني رمزيًّا. ومن يبرِّر تدمير مكان يُداوَى فيه الجسد، لا يمكن الثقة بقدرته على حماية الفضاء العلاجيّ النفسيّ.

استعادة الفاعليّة

"إن لم يغنِّ الكناريُّ يا صاحبي لك // غنِّ له أنت"...[14]

على أثر تلك اللحظات، تكثّف التساؤل والتشكُّك بالعلاقة العلاجيّة. تأثّرتْ قدرتي على الانخراط في العلاقة، وخلقتْ لديّ صعوبة على المستويَيْن النفسيّ والأخلاقيّ. وكذلك راودتني مشاعر القلق، والتشتُّت، وتسلَّلَ الإنهاك النفسيّ، والجسديّ، إلى خارج الغرفة العلاجيّة، ليمسّ نسيج حياتي اليوميّة وقلب شبكة الأمان والدعم التي أستند إليها، بما في ذلك اللقاءات مع الأصدقاء والصديقات واللقاءات العائليّة، وعلى وجه التحديد تلك التي شملت اللَّعب مع أطفال العائلة. صار حضوري فاترًا وفي الوقت نفسه مثقَلًا بصدى الإنهاك الذي حملتُه معي من داخل العلاج، وصرت شاردة وأفكاري مشتَّتة وأشغلني السؤال: ما العمل؟ وكيف أتعامل داخل اللقاءات؟ صارت الجلسات تستنزف الطاقة بدلًا من تجديدها، وتغلق نوافذ كنت أطلّ منها على مَصادر الأمل. لذا، اتّخذتُ قراري بألّا أسمح للعلاج أن يسلبني الجزء الحيويّ من حياتي، وبأن أرفض التطبيع مع مقولات تؤذيني وتمسّ المهنيّة والأخلاق الإنسانيّة.

حين أبلغتُ "ش" بِنيّتي التوقُّف مؤقّتًا عن الجلسات، أوضحتُ أنّني أرغب في المغادرة لأحافظ على الجزء الإيجابيّ من التجربة. لكنّها اقترحت أن "نتجاوز الأمر" داخل غرفة العلاج. شعرتُ أنّ ما قالته كان أقرب إلى ما يُفترَض أن يقال، ورغم ذلك سعيتُ إلى إعطاء العلاقة فرصة أخرى. بَيْدَ أنّ سلسلة الجلسات اللاحقة بيّنتْ، بوضوح أكثر، أنّ الفضاء العلاجيّ لم يَعُدْ قادرًا على احتواء مشاعري وروايتي. لم يكن ذلك عملًا علاجيًّا، بل كان استنزافًا مؤلمًا تَجاوَزَ طاقتي، واستمرّ في التأثير سلبًا على تفاصيل حياتي. فأوقفتُ العلاج إلى حين، من أجل التفكير في قدرتي على استئنافه لاحقًا.

في تلك الفترة، حسبت أنّه قد تهدأ مشاعري بعد انتهاء الحرب وتوقُّف عمليّة الإبادة في غزّة، وهي لم تتوقّف حتّى لحظة كتابة هذه السطور. وظننت أنّ مرور الوقت ربّما سيساعدني على استيعاب التجربة، كما يحدث أحيانًا حين نمنح الألم بعض المسافة. لكن مع كلّ يوم مضى، كان الشعور بالحزن يتعمّق وخيبة الأمل تتكثّف. بدأت أسترجع تفاصيل الجلسات، وأُدرك حجم الأذى النفسيّ الذي تراكم داخلي. بعد نحو ستّة أشهر، عدتُ لإنهاء العلاقة العلاجيّة رسميًّا. لم تكن "ش" كما عرفتها. كانت كأنّها لا تتحدّث، وتركت لي أنا المجال أن أتحدّث. شعرتُ بأنّ حضورها كان شكليًّا أكثر

12. American Psychological Association. (2018, April 19). "Parapraxis". APA Dictionary of Psychology.

13. American Psychological Association. (2018, April 19). "Symptomatic Act". APA Dictionary of Psychology.

14. درويش، محمود. [د. ت]. نهار الثلاثاء. الديوان.

ممّا هو تواصُليّ. وهناك لم يُتَحْ مجال حقيقيّ لمساءَلةِ ما جرى، وبدا أنّ "ش" لم تستطع تحمُّل مسؤوليّةِ ما حدث، أو لم ترَ في ذلك ضرورة؛ وهو ما ولّد شعورًا بالفقد وبتجربة لم تَجِدْ طريقها إلى الترميم أو التسمية.

ولكن إلى جانب الشعور بالفقد والخيبة، شعرت باستعادة لحيويّتي وشعرت بالاقتدار. وباستعارة ممّا قاله الشاعر درويش "إنْ لم يُغنِّ الكناريُّ يا صاحبي لك// غَنِّ له أنت"، قلت لنفسي: إن لم يكن الحيّز العلاجيّ فضاء للحياة، فلا ينبغي له أن يصبح موقعًا للموت الرمزيّ. وذلك أنّ الفاعليّة هي أيضًا شكل من أشكال التشافي، ولأنّ الذات المستعمَرة تستعيد صوتها وجسدها من خلال المواجَهة والفعل، لا من خلال الاستيعاب الصامت للهَيْمَنة. شعرت أنّ فعل "الانسحاب" يعبّر عن فقدانٍ جزئيّ لكنّه واعٍ للعلاقة، إلا ان استمرار العلاقة كان سيفضي الى خسارة أوسع لذاتي وكرامتي. أو باستعارة مفهوم مقاومة لفرض مولّد للفصام[15] schizophrenogenic imposition، من بولاص، أي مقاومة إسقاط العنف، وإنكار الوجود في الوقت ذاته. وهذا من أجل الحفاظ على التماسك النفسيّ والإصرار على الاعتراف بالذات، حتّى حين يسعى مَن هو في موقع القوّة إلى محوها أو إنكارها.

نحو وعي مهنيّ وأخلاقيّ يعرّف ويعترف بالفجوات المسكوت عنها

يهدف هذا القسم إلى تحليل ديناميّات العلاقة العلاجيّة، عبْر ربط التجربة الذاتيّة بمفاهيم من التحليل النفسيّ ومقارَبات نقديّة متقاطعة. ومن الجدير بالذكر أنّ العلاقة العلاجيّة لم تكن، منذ بدايتها، بمنأًى عن علاقات القوّة البنيويّة التي تشكّل الممارسة في سياقات استعماريّة وجندريّة غير متكافئة. بَيْدَ أنّ هذا النصّ يركّز على المرحلة التي أعقبت السابع من أكتوبر 2023 واندلاع حرب الإبادة على غزّة، حين تصاعدت هذه التفاوتات وتكثّفت، كاشفة هشاشة مفاهيم مهنيّة وأخلاقيّة ما دامت تُقدَّم بوصفها حياديّة.

وتُظهر التجربة أنّ العلاقة العلاجيّة لم تكن مجرّد حالة نفسيّة فرديّة، بل كانت فضاء تجلّت فيه علاقات القوّة البنيويّة، لا كحدث استثنائيّ، بل كنمط يعيد إنتاج ذاته. فمنذ الجلسات الأولى بعد الحرب، برز اختلال صارخ في الشروط الأساسيّة للعلاقة، مع استجابات دفاعيّة من المعالِجة تمثّلت في إنكار المعاناة والعجز عن احتوائها، وهو ما كشف عن تشابك النفسيّ والأخلاقيّ والسياسيّ والجندريّ، وأعاد تمثيل أنماط الإنكار والإقصاء الراسخة في السياقات الاستعماريّة.

من هذا المنطلق، يُعَدّ تحليل مفهوم الحياد مدخلًا لفَهْم الفجوات الأخلاقيّة والمهنيّة في العلاقة العلاجيّة. فبينما يُقدَّم الحياد في علم النفس كقيمة مهنيّة، تكشف المقارَبة النقديّة عن تشابك المفهوم مع السلطة والمعرفة، ودَوره في إعادة إنتاج البِنى الاستعماريّة التي تُشكِّل الممارَسة العلاجيّة.

15. يشير كريستوفر بولاص في تقديمه لإدوارد سعيد إلى أنّ كتابات الأخير لا تُعَدّ مجرّد مقاوَمة أدبيّة لِـ "الإبادة الفكريّة" التي تمارسها السرديّات الغربيّة حول الفلسطينيّ، بل تؤدّي في الوقت نفسه وظيفة مقاومة لفرض مولّد للفُصام (schizophrenogenic imposition)، أي إنّها تواجه آليّة مزدوجة من العنف تقوم على إسقاط عنف مباشر، وعلى إنكار وجوديّ للآخَر. حسب بولاص، تكمن قوّة هذا النوع من المقاومة في الحفاظ على التماسك النفسيّ والإصرار على الاعتراف بالذات، حتّى حين يسعى القامع إلى محوها أو إنكارها.

Bollas, Christopher; & Rose, Jacqueline (Eds.). (2003). **Freud and the Non-European**. London: Verso.

الحياد كعنف صامت

يُشكِّل مفهوم الحياد أحد أكثر المفاهيم إشكاليّة في الممارسة العلاجيّة، إذ يُقدَّم غالبًا كقيمة مهنيّة تضمن موضوعيّة المعالِج/ة وعدم تأثُّره بالسياق. غير أنّ هذا التصوُّر يفترض ضمنيًّا إمكانيّة وجود معرفة أو موقع إنسانيّ محايد، وهو ما يتعارض مع النقد الفلسفيّ والمعرفيّ لفكرة الحياد. وقد أشار سعيد إلى أنّه لا يمكن فصل المعرفة عن علاقات القوّة التي تنتجها؛ فكلّ إنتاج معرفيّ متأثّر بالسياقات السياسيّة والاجتماعيّة.[16] وتؤكّد هوكس أنّ العديد من النظريّات التي كتبها أشخاص بِيضٌ لم تحاول فَهْم واقع النساء السود وتجاربهنّ، ممّا يجعلها متحيّزة لموقع محدَّد داخل هرم القوّة والمعرفة،[17] فيما تُقدِّم هاراواي نقدًا جذريًّا لوهم الحياد من خلال مفهوم المعرفة المتمَوْضِعة، مشيرة إلى أنّ كلّ معرفة هي معرفة من موقع محدَّد، وأنّ ادّعاء الموضوعيّة الكلّيّة هو شكل من أشكال الهَيْمَنة المعرفيّة التي تخفي موقعها وتقدّم نفسها كمعرفة كونيّة محايدة.[18] وبالقياس مع ذلك، يمكن اعتبار الحياد العلاجيّ امتدادًا لادّعاء الحياد المعرفيّ؛ فالحياد الذي يتجاهل العنف البنيويّ لا يُنتِج توازنًا، بل يُنتِج عنفًا صامتًا يُعطّل إمكان اللقاء الإنسانيّ والتحوُّل النفسيّ. وبِذا، يصبح تفكيك مفهوم الحياد سؤالًا مهنيًّا وأخلاقيًّا: حياد تجاه مَنْ وماذا، وضدّ مَنْ وماذا؟

كذلك إنّ تفكيك الحياد لا يعني التماهي الأعمى مع تجربة المتعالج/ة، بل يعني وعي المعالِج/ة بمَوْقعيّته ومسؤوليّته المهنيّة الأخلاقيّة. وعليه، فإنّ بناء علاقة علاجيّة تحرُّريّة لا يسعى إلى محو الفوارق، بل إلى جعلها مرئيّة وإلى توفير الوعي بالموقع الذي قد يؤثّر في الإصغاء، والتأويل، ونوع التدخُّلات، ومضمونها. بِذا يمكن الحديث عن انخراطٍ تأمُّليٍّ واعٍ، أي قدرة المعالِج/ة على أن يكون حاضرًا في العلاقة بوعيٍ لموقعه وحدود سلطته، وباستعداد دائم لمساءلة ذاته وممارساته.

ونقد الحياد لا يعني الدعوة إلى انعدام الموقف، بل إلى انحيازٍ واعٍ للعدالة والتحرُّر بوصفه التزامًا مهنيًّا وإنسانيًّا. أمّا التحيُّز البنيويّ غير الواعي، حين يتماهى مع الخطاب الاستعماريّ أو الجندريّ، فهو يُعيد إنتاج الهَيْمَنة بدلًا من تفكيكها. في المقابل، يشكِّل التحيُّز الواعي النقديّ للمهمَّشين فعلًا أخلاقيًّا منسجمًا مع مبادئ علم النفس التحرُّريّ والمنظور النسويّ، إذ يعيد تمَوْضُعَ المعالِج/ة ضمن علاقة إنسانيّة قائمة على العدالة.

ولذا، لا يُفهَم انحياز المعالِجة في التجربة السابقة على أنّه مجرّد رأي سياسيّ، بل على أنّه تعبير عن تحيُّز عنصريّ بنيويّ أعاد إنتاج العنف الرمزيّ، وتسرّب العنف إلى الغرفة العلاجيّة، لا في الخطاب وحده، بل في بنْية العلاقة ذاتها، كما يتّضح من انهيار شروطها الأساسيّة لاحقًا.

16. سعيد، إدوارد. (1991). **الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء**. (الطبعة الثالثة، ترجمة أبو ديب، كمال). بيروت: مؤسّسة الأبحاث العربيّة.

17. هوكس، بيل. مرجع رقم 7.

18. Haraway, Donna, (1988). Situated Knowledges: The Science Question in Feminism and the Privilege of Partial Perspective. **Feminist Studies**, 14 (3). Pp. 575– 599.

انهيار الشروط الأساسيّة في العمليّة العلاجيّة

أفضى المسار العلاجيّ إلى تقويض شروط أساسيّة للعمليّة العلاجيّة، وهو ما عطّل ما أسماه وينيكوت "الاستعمال النفسيّ للموضوع/ توظيف الشيء" (The use of an object).[19] ففي غياب الاعتراف، وعندما لا يصمد "الموضوع"، أي المعالِجة، أمام الغضب والألم أو التحدّي الصادر عن الذات المتعالجة، تنهار إمكانيّة استخدامه كآخَر مستقلّ يُمْكن الاعتماد عليه كحاوية نفسيّة.[20] لجوء المعالِجة إلى ردود فعل دفاعيّة أفقَدَ العلاقةَ العلاجيّة وظيفتَها الأساسيّة، وجعل الفضاءَ الذي يُتيح للذات أن تلعب وتتخيّل يتلاشى،[21] الأمر الذي يساعد في تعميق وتوسيع علاقتها مع الذات والعالَم. ومع استمرار الإنكار وغياب المساءلة الأخلاقيّة، تعذَّرَ ترميم الشرخ، وانهارت إمكانات الترميم والتحوُّل. هذه الحالة تُجسِّد ما يسمّيه أوغدن "عدم القدرة على الحلم".[22] فقد تحوّل الفضاء العلاجيّ من مِساحة للتفكُّر إلى منبر لسلطة تُمْلي على المتعالجة المعنى، وتنكر عليها شرعيّة تجربتها الذاتيّة، لتجد نفسها في موقع اللامرئيّة وغير المعترَف بها.

ولا يقتصر هذا الانهيار على بُعد تقنيّ، بل يكشف تداخُلَ البِنى السياسيّة والجندريّة واللُّغويّة في تشكيل التجربة العلاجيّة. فكون المتعالجة امرأة فلسطينيّة تتحدّث بلغتها الثانية أمام امرأة إسرائيليّة هي كذلك في موقع السلطة العلاجيّة، كونها كذلك يجعل من كلّ لحظة داخل الجلسات العلاجيّة مِساحة تتفاعل فيها عناصر البنْية الاستعماريّة، والفروق الطبقيّة، واللغة، والهُويّة. وهنا، لا يُقاس ما يُقال فقط من حيث محتواه، بل يُوزَن أيضًا من خلال موقع القائل، ويُحمَّل بحمولة سياسيّة كثيفة حتّى في أعمق مِساحات الذات.

عمومًا، في هذه السياقات غير المتكافئة، وخاصّة في حالة عدم الاعتراف بالهُويّة الجمعيّة كجزء من التجربة الشعوريّة الفرديّة، يتحوّل الاحتواء من ممارسة علاجيّة إلى أداة ضبط "ناعمة" تعيد قَوْلَبة الألم بما يتوافق مع أفق المعالِج/ة، لا مع التجربة الذاتيّة للمتعالج/ة. لذا، لا يمكن النظر إلى الاحتواء على أنّه مهارة تقنيّة حياديّة، بل على أنّه قدرة نقديّة واعية لبِنى علاقات القوّة والسياقات التي تؤطّر -أحيانًا بطرق خفيّة وغير مدرَكة- ما يمكن احتواؤه، ومتى يكون ذلك وكيف يكون.

ويظهر أثر هذا التداخل البنيويّ لا في المعاني والمواقف فحسب، بل كذلك في الجسد ذاته، بوصفه حاملًا للذاكرة السياسيّة ومعبّرًا عن الفجوات في الإصغاء والاحتواء. فشل العلاقة العلاجيّة في احتواء الحضور الكامل للمتعالجة، بما ينطوي عليه من مشاعر وأفكار وسرديّات، يتجسّد بداية على المستوى الجسديّ. الانتقال من الكرسيّ والأريكة وإليهما شكّل لغة جسديّة تعبّر عن عمق التحوُّلات النفسيّة في العلاقة العلاجيّة. إنّها ليست مجرّد تفاصيل مكانيّة، بل هي تجسيد مادّيّ

19. Winnicott, W. Donald. (2016). "The Use of an Object and Relating Through Identifications". In: Caldwell, Lesley; &Taylor Robinson, Helen. **The Collected Works of D. W. Winnicott: (Volume 8, 1967– 1968)**. Oxford: Oxford University Press. Pp. 355- 364.

20. Bion, Wilfred. (1985). "Container and contained". In: Colman, A. D.; & Bexton, W. H. (Eds.). The Group Relations Reader 2. Washington, DC: A. K. Rice Institute. Pp. 127– 133.
وَفقًا لويلفرد بيون، الحاوية Container، الأمّ أو المحلِّل/ة النفسيّ/ة، تقوم بعمليّة الاحتواء. وهي عمليّة استيعاب المضامين الانفعاليّة الخام وهضمها داخليًّا وتحويلها إلى تجارب نفسيّة قابلة للتفكير، بمنحها دلالة ومعنى ثمّ إرجاعها بشكل أكثر قابليّة للفهم والاستيعاب والرمْزَنَة تُشعر المتعالج/ة (أو الطفل، أو الإنسان) بأنّه مفهوم، فتُشعره بالأمان من جهة، وتسهم في استيعاب المضمون مجدّدًا وتنظيم عالمه الداخليّ، من جهة أخرى.

21. Winnicott, W. Donald. (1971). **Playing and Reality**. London: Tavistock Publications.

22. Ogden, H. Thomas. (2003). On not being able to dream. **The International Journal of Psychoanalysis, Psycho-Anal**, 84 (1).

لمستوى الثقة والشعور بالأمان داخل العلاقة العلاجيّة. الانتقال الأوّل إلى الأريكة عبّر عن قدرة المتعالجة على اختبار الفضاء العلاجيّ، فمع تقدُّم السيرورة العلاجيّة لم تكن الاستقلاليّة نقيضًا للعلاقة، بل كانت شرطًا ناضجًا من شروطها. أمّا العودة العفْويّة إلى الكرسيّ بعد اندلاع الحرب، فتُشكِّل لحظة نفسيّة مليئة بالدلالات، وتعبّر عن تشقُّق في الفضاء العلاجيّ- وكأنّ الجسد، قبل اللغة، أعلن عن عدم الشعور بالأمان.

تكشف هذه اللحظة الجسديّة عن جوهرِ ما تحاول المقالة إبرازه: أنّ الفضاء العلاجيّ ليس مِساحة محايدة خارج التاريخ والسياسة، بل هو جزء من نسيج اجتماعيّ واستعماريّ وجندريّ أوسع. إضافة إلى ذلك، تُبيِّن هذه اللحظة أنّ العلاج النفسيّ لا يمكن فصله عن البِنى الاجتماعيّة والسياسيّة، خاصّة حين تكون العلاقة بين فلسطينيّة وإسرائيليّة. فكلّما كانت السياسة تطفو على السطح، ظهرت فجوة في الإصغاء تُعلن أَنِ انتبهي فأمامك فجوة (Mind the Gap). فعْل العودة إلى الكرسيّ يشير إلى أنّ الجسد يعرف، وأنّه ذاكرة سياسيّة بقدرِ ما هو ذات نفسيّة. كذلك يمكن التأويل أنّ هذا الفعل قد يشير إلى تعامل مع قلق في أن تُدرَك فاعليّة الذات من موقع التبعيّة.

الإصغاء الانتقائيّ

تُظهِر التجربة أنّ الإصغاء في السياقات غير المتكافئة قد يتحوّل -دون وعي أحيانًا- إلى إصغاء انتقائيّ يخضع لمعايير غير معلَنة تُحدِّدُ ما يمكن التعبير عنه وما يجري تجاهله (كما ورد في السرد: ..."شعرت بأنّها تستمع إليّ من خلال موقعيّتها وتوقُّعاتها هي، لا من خلال تجربتي"...). فعندما يُصغِي المعالِج/ة من داخل أُطُره المسبقة، لا من موقع المتعالج/ة، تُشوَّه التجربة ويُعاد تأطيرها ضمن منطق هَيْمَنَة، وهو ما يقوّض الثقة بالعلاقة العلاجيّة. لذا، لا يمكن فَهْم الإصغاء كمهارة حياديّة، بل كفعل أخلاقيّ يتطلّب حضورًا متواضعًا ووعيًا بالموقع، أي أن يُصغي المعالِج/ة أيضًا إلى كيفيّة إصغائه وتأثُّره بسياقه وموقعيّته.

تَجسَّد هذا أيضًا من خلال استغراب المعالِجة من "عدم التطرُّق بالحديث إلى المظاهرات الإسرائيليّة ضدّ الحكومة". فالمعالِجة المعتادة على التركيز على العالم الداخليّ ولم تُبْدِ فضولًا سياسيًّا من قبل، طرحت فجأة حدثًا سياسيًّا يهمّها هي. هذا التحوُّل قد يُفهَم كنوع من الضبط الرمزيّ للمتعالجة.[23] وفي الإمكان قراءة هذا الموقف عبر مفهوم "الاعتراف المتبادل" الذي نظّرت له بنجامين،[24] إذ تقول إنّ الاعتراف مبنيّ على التفاعل لا على التماهي والسيطرة، وإنّ الاستسلام لعلاقة قائمة على الاعتراف لا يعني الخضوع، بل الانخراط في علاقة تشاركيّة تعترف بالآخر كذات قائمة بذاتها، لا كمرآة لتصوُّرات الذات الأقوى.

23. قد يختار المعالِج/ة أحيانًا استحضار حدث خارجيّ أو شخصيّ ابتغاءَ تحقيق أثر علاجيّ، غير أنّ ما بدا في تلك اللحظة وما تلاها يشير إلى أنّ ذلك كان إقحامًا شخصيًّا أكثر ممّا هو خطوة ذات تسويغ مهنيّ علاجيّ. فوَفقًا لتوجُّهات علاجيّة -كالعلائقيّ والبين-ذاتيّ مثلًا- قد يكون هذا الاستحضار مشروعًا حين يُبنى على وعي علائقيّ بالمِساحة المشترَكة ويسعى إلى تعزيز عمليّة الاعتراف المتبادَل، أو حين يسعى إلى "حلم" مضمون استحضره المتعالج/ة. غير أنّ ما حدث كان إقحامًا لحاجات وتجارب شخصيّة للمعالِجة، لم أجد له تسويغًا مهنيًّا في ما تلاه.

24. Benjamin, Jessica. (2004). Beyond doer and done to an intersubjective view of thirdness. **The Psychoanalytic Quarterly**, 73 (1). Pp. 5- 46.

وبِذا لم يكن السؤال عن عدم التطرُّق في الحديث إلى المظاهرات ضدّ الحكومة بحدّ ذاته هو المشكلة، بل اللحظة التي طُرِح فيها، والطريقة التي حُمِّل بها دلالة ضمنيّة، فبدا من خلال "استهجان المعالِجة" ولحظة ظهور الاستثناء هذه أنّ التعبير السياسيّ "المناسب" محبَّذ أن يتطابق مع سياق المعالِجة. كذلك أُتيحت في نهاية اللقاء إمكانيّة لنشل "لحظة الممازَحة" والإضاءة على رغبة المتعالجة في إعادة خلق جِسر بين عالَمَيْن، لكنّها لم تُستغلّ على كونها إشارات دقيقة تنقل مشاعر معقَّدة. هذا يؤكّد أنّ العلاقة العلاجيّة في حالة بناء مستمرّ، لكنّها تحتاج إلى وعي عميق لبِنى علاقات القوى وفي حضور أخلاقيّ متيقّظ.

إنكار المعاناة والهجوم على الروابط

تكشف التجربة أنّ الفشل في العلاقة العلاجيّة لم يكن حدثًا عَرَضيًّا، بل كان نمطًا نابعًا من غياب الوعي بالعلاقات البنيويّة التي تشكّل الممارسةَ العلاجيّة. لم تفشل العلاقة فقط في استغلال لحظاتٍ ممْكنة لبناء الجسور، بل قوّضتْ أحيانًا إمكانيّةَ وجودها من الأساس. على سبيل المثال، يجسّد إنكار المعالِجة لصور الأجساد الممزَّقة إلى أشلاء مثالًا صارخًا على ما وصفه بيون بِـ "الهجوم على الروابط" (Attacks on Linking)،[25] أي الرفض العدائيّ لبناء رابط بين التجربة الشعوريّة والمعرفة بها، بين الصورة والمعنى، بين التجربة الشخصيّة والذاكرة الجمعيّة. من خلال هذا الإنكار، تحوَّلَ الألم إلى مادّة مرفوضة داخل الحيّز العلاجيّ، وهو ما عطّل إمكانيّة بناء تجربة شعوريّة مشترَكة.

إنّ هذا الموقف تجاوز حدود الفشل العلاجيّ التقنيّ، ليُشكِّل فعلًا عنيفًا من محو الرواية، والكرامة، والوجود نفسه، على نحوٍ ما تُبيِّن شلهوب في تحليلها لممارسات محو الرمزيّة عن الجسد الفلسطينيّ. فوَصْم الصور بالمزيَّفة لا ينكر الجريمة فحسْب، بل يُسهم في تجريد الجسد الفلسطينيّ من حقّه في التعبير، وملاحقته حتّى في موته، ويمحو الرمزيّة من الجسد الممزَّق إلى أشلاء، وهو ما يُضاعف فعل القتل حيث يُنكر الحقّ الطبيعيّ الإنسانيّ بالحزن، وبالحِداد، وبالاعتراف.[26]

وعبْر عدسة كرستيفا، في الإمكان قراءة أنّ "الغريب" الفلسطينيّ الذي أُسقِطَ عليه العنف الاستعماريّ شكّل مرآة للمعالِجة عكستْ ما حاولت ربّما إقصاءه أو إنكاره في داخلها. إنّ صور الأجساد الممزَّقة لم تكن فقط شهادة على العنف الاستعماريّ، بل مثّلتْ مرآة واجهت بها المعالِجة، ربّما، جانبًا مكبوتًا من انتمائها، أي "الغريب الداخليّ" الذي لم تشأ رؤيته أو الاعتراف به. ومن هنا في الإمكان قراءة إنكار الصور كذلك كفعل دفاعيّ يحجب عن الذات مواجهة بشاعة العنف الذي يُمارَس باسمها ويشكّل جزءًا من موقعيّتها. إنّ رفض النظر إلى هذه المرآة، أي إنكار حقيقة الصور، هو في الوقت نفسه محو للوجود الفلسطينيّ ورفض للاعتراف بما تكشفه هذه الصور عن عنف داخل الذات الاستعماريّة.[27]

25. Bion, Wilferd. R. (2013). Attacks on linking. **The Psychoanalytic Quarterly**, 82 (2).

26. Shalhoub-Kevorkian, Nadera. (2024, October 31). Ashlaa' and the Genocide in Gaza. Society for Cultural Anthropology.

27. Kristeva, Julia. (1991). **Strangers to Ourselves**. (Roudiez, Leon S., trans.). New York: Columbia University Press.

انهيار الحيّز العلاجيّ تحت سلطة المراقَبة

يتجسّد المحو، أيضًا، عندما ظهرت عمليّة المراقَبة والتقييم علنيًّا. فقول المعالِجة: "نعم، لكن استغرق الأمر أربعين دقيقة حتّى تَذْكريه"، كشف عن حضور سلطة تَعُدّ الدقائق، تراقب وتقيّم ما يُقال ومتى يقال. فعوضًا عن استقبال المعالِجة لمشاعر القلق وتحويلها إلى مادّة قابلة للتفكير فيها، أُعيد توجيه الحديث نحو ما يجب قوله أو تذكُّره ومتى يكون ذلك، بما يتماهى مع الخطاب السائد. هنا ظهرت المعالِجة كمرآة للسلطة، الأمر الذي قوّض أُسُس الثقة والشعور الأمان.

أمّا اللحظة التي أجهزت على ما تبقّى من العلاقة العلاجيّة وقوّضت إمكانيّة ترميمها، فقد تمثّلت في تصريح المعالِجة أنّ "قصف المستشفَيات لا يُعَدّ جريمة حرب". جاء هذا الردّ بعد سؤال المتعالجة عن أصوات معارضة للحرب. وهو سؤال يمكن اعتباره محاوَلة لإعادة استكشاف موقف المعالِجة من الأحداث الجارية، ويحمل في طيّاته رغبة في إيجاد موطئ دعم يرمّم الثقة ويعيد الأمان إلى الفضاء العلاجيّ. بَيْدَ أنّ ردّ المعالِجة الضبابيّ، ثمّ تصريحها الصادم، لم يبدّدا القلق، بل رسّخاه، وسَلَبَا إمكانيّة إعادة الثقة بالعلاقة العلاجيّة، وشَكّلَا انهيارًا أخلاقيًّا ومهنيًّا؛ إذ لقد حوّلا الغرفة إلى مسرح لإعادة تمثيل خطاب يبرّر العنف ويجرّد الضحايا من إنسانيّتهم.

في هذا الصدد، يشير بولاص إلى أنّ دراسة بنْية القمع لا تقتصر على العنف المباشر الذي يمارَس داخل علاقات القوّة، والذي يسمّيه الهلْوَسة الإيجابيّة، بل تشمل كذلك إنكار القامع لوجود الآخَر المقموع، أو ما يسمّيه الهلْوَسة السلبيّة. ويضيف بولاص، بشأن العلاقة السامّة والعلاقة الذهانيّة، مشيرًا إلى أنّ المزيج بين الهلْوَسة الإيجابيّة، المتمثّلة في إسقاط العنف على الفلسطينيّ (كما في التصريح أنّ قصف المستشفيات ليس جريمة) والهلْوَسة السلبيّة، المتمثّلة في إنكار وجوده الفعليّ (كما في الادّعاء أنّ صور أشلاء أجساد الأطفال مزيَّفة)، لا يجعل علاقة الموضوع (Object Relation) علاقة سامّة فحسب، بل علاقة ذهانيّة.[28]

هكذا تحوّل التصريح الصادم إلى قصف رمزيّ وفعليّ للحيّز العلاجيّ نفسه؛ فقد انهارت الإمكانيّات على الترميز واللّعب والإبداع. وهو ما وصفه وينيكوت بالفضاء المحتمَل[29] (Potential Space)،[30] أي الحيّز الذي يتيح للذات أن تلعب وتبدع وتختبر عالَمها الداخليّ والخارجيّ بحرّيّة. ومع انهيار القدرة على اللّعب والترميز والتواصل، تفقد العلاقة العلاجيّة أحد أهمّ شروطها الأساسيّة. هذه اللحظة لم تكن استثناء، بل ذروة من الإخفاقات: من غياب الاحتواء والإصغاء والاعتراف المتبادَل، إلى الهجوم على الروابط، وصولًا إلى انهيار الفضاء الآمن برمّته. إنّها حلقات متّصلة تكشف كيف يتحوّل الحيّز العلاجيّ إلى حيّز يُعاد فيه إنتاج بِنى علاقات القوّة.

28. Bollas, Christopher. مرجع رقم 15.

29. Winnicott, W. Donald. مرجع رقم 21.

30. Ogden, H. Thomas. (1992). **Potential Space, The matrix of the mind: Object relations and the psychoanalytic dialogue**. New York: Other Press.

الفاعليّة في مواجهة تقويض موارد الحياة

تحوّلت الجلسات العلاجيّة إلى مَصْدر يقوّض موارد الحياة الداخليّة والخارجيّة، وعطّلت ما يسمّيه أوغدن بالقدرة على الحُلْم كنتيجة مباشرة لفشل العلاقة الحاوية. فعندما تُهاجَم الروابط، تتعطّل عمليّة الحلم والتفكير.[31] ويمكن القول إنّ الغرفة العلاجيّة فاضت بمركّبات بيتا[32] (Beta Element)، وَفقًا لتنظير بيون. وقد تسرّبت تلك الموادّ الخام غير القابلة للترميز إلى الحياة اليوميّة للمتعالجة، وصارت الجلسات العلاجيّة تستنزفُ الطاقة بدلًا من أن تجدّدها، وتغلقُ نوافذ تتيح الإطلال على مصادر الأمل. وتعطّلت القدرة على التواصل مع الذات والآخرين كمصادر دعم وحماية، وهو ما أفضى إلى موجات من التشتُّت والإنهاك لدى المتعالجة.

في هذه الحالة، لا يُعَدّ خرق الحدود تجاوزًا تقنيًّا فحسب، بل يُعَدّ كذلك آليّةً تُعيد إنتاج علاقات القوّة داخل الغرفة العلاجيّة، وتُكرِّس تهميش تجربة المتعالج/ة. ومن هذا المنطلق، فإنّ تحليل التجربة هو دعوة لتأسيس وعي مهنيّ وأخلاقيّ نقديّ يواجه المسكوت عنه داخل الممارَسة العلاجيّة، ويمنع تحوُّلها إلى موقع لإعادة إنتاج العنف الرمزيّ. ففي السياقات غير المتكافئة، كما تُبيِّن سبيفاك،[33] عندما يتكلّم "التابع" (امرأة؛ مستعمَر؛ مهمَّش) دون أن يُعترَف بصوته كتعبير عن تجربة نفسيّة سياسيّة معقَّدة، يُعاد تأطير صوته ضمن بِنى الخطاب السائد، لا لغرض فَهْمه، بل لترويضه. وبينما ترى بنجامين أنّ "الاعتراف المتبادل" شرط أساسيّ لنشوء علاقة إنسانيّة متكافئة، تحذّر سبيفاك من أنّ هذا الفضاء قد يكون مغلقًا بنيويًّا أمام من يُنظر إليه على أنّه "آخَر".

من هنا، الحياد في مثل هذه السياقات يُعتبَر تَمَوْضُعًا سياسيًّا لا أخلاقيًّا فقط، إذ يعمل كآليّة لإسكات صوت المختلف وتجربته. كذلك في الإمكان قراءة اقتراح المعالِجة بِـ "تجاوز الأمر" داخل الغرفة العلاجيّة كشكل من العنف الرمزيّ، حيث يتسلّل، على نحوٍ خفيّ أو ناعم، لتثبيت وإعادة إنتاج علاقات قوّة داخل العلاقة العلاجيّة. ويتجلّى هنا في صورة إلحاح علاجيّ زائف، يحاول استعادة السيطرة على الفضاء العلاجيّ من خلال الحفاظ على بقاء العلاقة، ولكن بالاستمرار في نفي الألم وإسكات الصوت والتجربة؛ وهذا دفع إلى الانسحاب من العلاقة كضرورة وجوديّة لحماية الموارد النفسيّة الداخليّة والخارجيّة وعدم الاستسلام للعنف الرمزيّ. عن هذا يقول مكّاوي: "إنّ عِلم النفس الذي لا ينبثق من تحليل التجربة الحيّة في ظلّ القمع الاستعماريّ، لا يمكن أن يكون عِلمًا تحرُّريًّا، بل يتحوّل إلى جزء من المشكلة، لا من الحلّ".[34]

---

31. Ogden, H. Thomas. مرجع رقم 22.

32. "مركّبات بيتا": هي تجارب حسّيّة انفعاليّة خام يعيشها الطفل/ الإنسان، بوصفها -حسب تعبير بيون- شظايا من تجربة غير قابلة للهضم النفسيّ أو للمعالَجة الذهنيّة، وتظهر غالبًا كأحاسيس جسديّة أو انفعالات، لا يمكن فَهْمها أو تنظيمها. وعلى الرغم من طابعها الخام، يمكن لها أن تتحوّل إلى عناصر فكريّة ذات معنى، تلك التي أطلق عليها بيون "مركّبات ألفا" (Alpha Elements). يجري هذا من خلال وظيفة الألفا (Alpha Function) التي تؤدّيها الحاوية (Container)، الأمّ أو المحلّل/ة النفسيّ/ة، فتقوم باستقبال مركّبات بيتا، وهضمها واستيعابها، ومنحها دلالةً ومعنًى، ثمّ إرجاعها بشكل أكثر قابليّة للفَهْم والاستيعاب والرَّمْزَنَة. انظر:

Bion, Wilfred R. 4 مرجع رقم.

33. سبيفاك، غاياتري. (2020). **هل يستطيع التابع أن يتكلّم؟** (الطبعة الأولى، ترجمة حافظي، خالد). الجبيل: صفحة سبعة للنشر والتوزيع.

34. Makkawi, Ibrahim. (2017). "Towards decolonizing community psychology: Insights from the Palestinian colonial context". In: Boniforti, Davide; Albanese, Cinzia; and Zatti, Alberto (Eds.). **Frontiere di Comunità: Complessità a Confronto**. Bologna: University of Bologna Press. P. 15.

وبالاستناد إلى تنظيرات فانون[35] وَبارو،[36] يمكن النظر إلى هذا الفعل بوصفه تعبيرًا عن استعادة الفاعليّة (Agency) باعتبارها فعلًا نفسيًّا شخصيًّا وسياسيًّا، وشكلًا من أشكال التشافي الذي يتجلّى في قرار حماية الذات، وهو فعل حياة في مواجهة تآكُلها، يعيد امتلاك الصوت والمعنى، ويُعيد تعريف العلاقة العلاجيّة لا كسلطة يُذعن لها، بل كفضاءٍ تشارُكيٍّ يُعاد التفاوض عليه باستمرار.

تكشف هذه التجربة أنّ مفاهيم الحياد والإصغاء والاحتواء وأمثالها ليست أدوات تقنيّة محايدة، بل هي ممارسات تتأطّر دومًا داخل بِنى علاقات القوّة والسياقات الاستعماريّة التي تنتجها. إنّ استعادة الفاعليّة لا تقتصر على قرار فرديّ، بل تمثّل موقفًا نقديًّا يربط العلاجيّ بالسياسيّ، ويعيد تعريف العلاقة العلاجيّة كفضاء تشارُكيّ يُعاد التفاوض عليه باستمرار؛ وهو ما يستدعي مقارَبة نقديّة متجدّدة تنزع الاستعمار عن حقل علم النفس (Decolonizing psychology)،[37] وتُحَرِّر الممارسةَ العلاجيّة، وتعيد تأصيلها ضمن سياقاتها الإنسانيّة والاجتماعيّة والسياسيّة. كذلك يستدعي الأمر التفكيرَ في تشكيل "فضاءٍ محتمَلٍ"[38] تحرُّريٍّ يجري فيه الاعتراف بالآخَر بوصفه ذاتيّة متكاملة ومركَّبة، لا موضوعًا للعلاج أو للضبط، بل شريكًا في إنتاج الفَهْم. في هذا الفضاء، لا يُكتفى بالإصغاء والاحتواء والاعتراف كممارَسات تقنيّة، ولا النظر إلى القدرة على الحُلْم[39] والقدرة على اللَّعب[40] بمعزل عن السياق، بل يُعاد تفعيلها كسؤال نقديّ مستمرّ حول التالي: من يُرى؟ ومن يُفهم؟ ومن يُقصى؟ ولماذا؟

وعلى صعيد آخَر، ما حدث داخل الغرفة العلاجيّة لا يمكن اختزاله كتجربة شخصيّة معزولة، بل يشكّل تعبيرًا عن نمط يتكرّر في السياقات الاستعماريّة وعلاقات القوى. أعلم أنّني لست الوحيدة التي اجتازت هذه التجربة؛ إذ أعرف عددًا من الزميلات والزملاء الفلسطينيّين/ات العاملين/ات في الحقل العلاجيّ داخل إسرائيل، ممّن اختاروا إنهاء علاقتهم العلاجيّة أو الإشرافيّة مع مختصّين/ات إسرائيليّين بعد بدء حرب الإبادة نتيجة لتجارب مشابهة من الفشل في عمليّة الاحتواء، والخلل في الإصغاء، وإعادة تمثيل علاقات القوّة داخل حيّز يُفترض أن يكون آمنًا. اختار بعضهم الصمت خشية الوصم أو الاستهداف المهنيّ أو السياسيّ، وبخاصّة في ظلّ حملات اعتقالات وإسكات وترهيب بلغت منذ بدء الإبادة مستوياتٍ أشدَّ وأكثر حدّة ممّا عرفوه في السابق. يرافق ذلك شعورٌ عميقٌ "باليُتْم" نتيجة غياب إطار نقابيّ أو سياسيّ يمكن لهم أن يتوجّهوا إليه لدعمهم ولحمايتهم، وهو ما يعمّق الفجوة بين المعاناة وإمكانيّة التعبير عنها.

35. فانون، فرانز. مرجع رقم 8.

36. Martin-Baro, Ignacio. (1996). **Writings for a Liberation Psychology**. (2nd Ed.). Cambridge, MA: Harvard University Press.

37. Bulhan, A. Hussein. (2015). Stages of Colonialism in Africa: From Occupation of Land to Occupation of Being. **Journal of Social and Political Psychology**, 3 (1). Pp. 239– 256.

38. Ogden, H. Thomas. 30 مرجع رقم.

39. يقول جون شنايدر: "الحُلم، بالنسبة لبيون، ينطوي على السعي وراء الحقيقة من خلال التفكير والشعور. وهو يؤمن بأنّ القوّة الدافعة للتطوُّر عند البشر هي البحث عن الحقيقة، وأنّ العقل يتطوّر من خلال الحُلْم بينما نسعى لاكتشاف حقيقة تجاربنا". انظر:
Schneider, A. John, (2010). From Freud's Dream-Work to Bion's Work of Dreaming: The Changing Conception of Dreaming in Psychoanalytic Theory. **International Journal of Psychoanalysis,** 91 (3). Pp. 521– 540.

40. Winnicott, W. Donald. (1971). 21 مرجع رقم.

خاتمة

"أكتبُ ليخضرّ السراب".[41]

أكتب هذه المقالة استجابة لحاجة داخليّة لفَهْم ما جرى، ولإعادة ترتيب التجربة عبْر فعل الكتابة؛ وهو فعل يقاوم السراب ويتيح للغموض أن يتبدّد، وللألم أن يتحوّل إلى معنى. ورغم أنّ ما بدا أحيانًا كسراب داخل العلاقة العلاجيّة كان يحمل إمكانيّة أن "يخضرّ" وينمو، لولا لحظات الانهيار المهنيّ الأخلاقيّ التي تُخلّف ألمًا وصدمة لدى المتعالج/ة، فإنّ المتعالج/ة يأتي إلى الغرفة العلاجيّة على افتراض مهنيّة وأخلاق المعالِج/ة، وعلى أمل أن تكون المِساحة العلاجيّة فضاء آمنًا للتكشُّف والتكوين المتجدّد.

وفي هذا الإطار، يطمح هذا النصّ إلى فتح أفق للتأمّل المستمرّ ولتحرير الجسد والنفس والمعرفة من القيود التي تُعيق تحقيق الذات الفرديّة والجمعيّة. هذا التحرير هو فعل نفسيّ وسياسيّ ومعرفيّ وأخلاقيّ مستمرّ؛ ولا يقتصر على قراءة تفكيكيّة للبِنى الخارجيّة للسلطة، بل يتجاوز ذلك إلى مقاومتها وتفكيك تجلّياتها الصامتة داخل اللغة والمعايير وعلاقات الإخضاع. فمن خلال نقد جذريّ للحياد التقنيّ ومساءلة المفاهيم التي جرى التطرُّق إليها في قلب النصّ، وغيرها من المفاهيم التي تؤسّس علم النفس، يمكن أن تصبح هذه المفاهيم أدوات للتحرُّر بحدّ ذاتها؛ إذ إنّ السلطة لا تسكن في السياسات أو المؤسَّسات فحسْب، بل كذلك في اللغة والمعايير التي تحدّد من يُرى ومن يُهمَّش، وما يُسمّى وما يُسكت عنه.

41. درويش، محمود. مرجع رقم 1.

مدى الكرمل
المركز العربي للدراسات
الاجتماعية التطبيقية